تجربة التعريب في سوريا

الدكتور توفيق المنجد

رزحت الديار الشامية تحت نير الحكم التركي حقبة طويلة من الدهر امتدت نحو خمسمائة سنة ونيف ، عانى اهل البلاد خلالها اشد انواع الظلم والاستغلال والاستعباد ، واشتدت وطأة هذا الحكم في اواخر القرن التاسع عشر ومطلع القرن العشرين حينما عمد العثمانيون الى محاولة « تتريك » الشعب العربي في سوريا بعد ان صبغوا الادارة المحلية بطابعهم وملأوا دواوينها بموظفيهم وليصلوا الى غايتهم هذه انشاوا في المدن الكبيرة بعض المدارس الرشدية « الابتدائية » والاعدادية والسلطانية « الثانوية » . وجعلوا التعليم كله فيها باللغة التركية ولم يتركوا للغة العربية ودروس الدين الا النزر القليل من الساعات ، يدرسها معلمون اتراك باللغة التركية . ولم تفلت المدارس الاهلية العربية من ايديهم فعمدوا الى فرض تعليم اللغة التركية فيها بنطاق واسع ، ولاحقوها بالتفتيش المستمر وعقوبة الاغلاق للتخلص منها نهائيا ولكن مقومات القومية العربية بقيت رغم ذلك وطيدة الاركان ، ومنها انبعثت روح المقاومة والكفاح والنضال .

وعند ما انهزم الاتراك في نهاية الحرب العالمية الاولى ، وولى موظفوهم الادبار واجهت البلاد بين المشاكل المتعددة مشكلة اعادة تعريب الادارة والتعليم. فانشىء المجمع العلمي العربي بدمشق من لفيف من كبار اللغويين والادباء والعلماء ، وكان من اولى مهماته احياء التراث العربي القديم ووضع المصطلحات الادارية والعلمية والفنية . وقام المجمع بمهمة هذه خير قيام فعمل على ايجاد المصطلحات الادارية والفكرية التي مكنت الحكومة من تعريب جيشها الفتي ودواوين مصالحها بسرعة كبيرة ، ثم انصرف المجمع لايجاد المصطلحات العلمية والفنية التي تتناول مرافق الحياة المختلفة .

وبجانب هذه الجهود الرسمية ، قامت جهود فردية من قبل فريق من المعلمين والمدرسين للترجمة والتاليف ووضع المصطلحات المناسبة لكل مادة من مواد العلوم التي تدرس في مرحلتي التعليم الابتدائي والتعليم الثانوي . فتم بذلك تعريب التعليم دفعة واحدة وخلال مدة قصيرة وكانما تم بعصى سحرية .

وفي هذه الفترة بالذات احدثت في دمشق جامعة مؤلفة من كليتين : احداهما للطب والصيدلة وطب الاسنان والاخرى للحقوق لمجابهة حاجة البلاد للاطباء والصيادلة والقضاة والمحامين . وتضافرت جهود أساتذة هاتين الكليتين مع جهود اعضاء المجمع العلمي العربي في وضع المصطلحات الطبية والحقوقية بحيث سار التعليم الجامعي منذ السنة الاولى من تأسيسه باللغة العربية. واستمرت الترجمة والتاليف ووضع المصطلحات حتى نهاية المرحلة . وقد بلغ عدد الكتب التي الفها أساتذة الجامعة واخرجتها مطبعتها مائة وخمسين مصنفا في مختلف العلوم الطبية والحقوقية عدا المجلات الطبية والحقوقية التي اصدرتها الجامعة .

وحاول الفرنسيون بعد احتلالهم لسوريا ان يحلوا لغتهم محل اللغة العربية في التعليم والتدريس وان يلغوا التعليم الجامعي برمته ، ولكن محاولتهم لاقت مقاومة عنيفة وفشلت فشلا ذريعا فاكتفوا باحتلال لغتهم مكان اللغة الانجليزية التي كانت تدرس كلغة في المدارس وباقامة العقبات في نمو الجامعة وتطويرها .

وما لبث أن جلا الفرنسيون عن البلاد بفضل كفاح اهلها المرير وبدأ عهد الاستقلال باصلاح شامل لمناهج التعليم فاعيدت اللغة الانجليزية الى جانب اللغة الفرنسية في التعليم الثانوي ، واحدثت في جامعة دمشق دفعة واحدة اربع كليات جديدة انضمت الى كليتي الطب والحقوق وهي كليات الآداب والعلوم والتربية والهندسة، ثم اضيفت اليها كليتان اخريان هما التجارة والشريعة .

وبهذا نشطت الحركة العلمية في البلاد وتالفت فيها جمعيات علمية متعددة انتظمت كلها في اتحاد عام وازداد عدد الكتب المؤلفة او المترجمة في شتى ميادين العلوم والفنون .

هذه صورة سريعة لتجربة تعريب التعليم التي مرت بها سوريا خلال الاربعين سنة الفائتة عمل فيها جيل بعد آخر لم يستهول الجيل الاول منها صعوبتها بل أقدم بعزم على اقتحامها ومهدت الاجيال الاخرى الطريق امامنا لتسير فيه دوما بخطوات واسعة .